مجلة علوم التربية

دورية مغربية متخصصة

ملف خاص

التعليم وإشكالياته

العدد الثامن والثلاثون- سبتمبر 2008

في منهجية التحليل الاديولوجي للكتاب المدرسي

قراءة في شبكة Weinbrenner للنقد الايديولوجي

● د. عبد الجليل أميم*

الحمولة الاديولوجية مكون أساسي لمضامين الكتب وخصوصا الكتب الموجهة للمتعلمين. ذلك أن أي نظام تعليمي كيف ما كان، إلا ويسعى بشكل قصدي ومدروس إلى تشكيل أبناءه وفقا لنظام من القيم والعادات والمعايير والقواعد التي تحافظ على تماسكه، وتضمن له البقاء والاستمرارية، وتميزه عن غيره من المجتمعات.

ولعل النقد الاديولوجي من أهم الوسائل التي تمكن الباحثين التربويين من تتبع تطور نظام القيم والأهداف في المؤلفات التعليمية، وكذا من مراجعة التصورات الموجهة للمضامين التعليمية، ومحاكمتها للمثال المعتمد من طرف المجتمع، وكذا مراقبة ما يستدخله النشء في سيرورته التعليمية.

ومبحث النقد الاديولوجي التربوي من المباحث المغبونة في الأدبيات التربوية المغربية، إذ لا نكاد نعثر إلا على بعض الشذرات هنا وهناك في بعض المجلات والتي غالبا ما تعالجه ضمن أبعاد الكتاب المدرسي[1]. وقد يكون غياب مثل هذه الأبحاث ناتج بالأساس عن التوجه العام الطاغي على الأدبيات التربوية المغربية والتي سجنت نفسها في المستجدات التربوية خصوصا ما يرتبط باحتياجات المعلمين والأساتذة من معارف للترقية والصعود في السلاليم الإدارية، الشيء الذي جعل الباحثين التربويين في خانة الاتهام بالجري وراء تأليف ما يباع فقط. وتركت قضايا التربية والتعليم الأساسية وإشكالاته دون بحث، حتى أنك لا تكاد تجد مؤلفا واحدا في السوق

* باحث في علوم التربية

المغربية يؤسس للتربية في المغرب، وينتقد توجهاتها، ويحاكم مناهجها، ويحلل مكوناتها، ويجدد في بنياتها، بل إن كل ما نجده هو كتب متعددة تتناول موضوعا تقنيا جديدا سرعان ما سيتخلى عنه المؤلف بمجرد ظهور جيل جديد من التقنيات والنظريات. مؤسف إذا أن يصبح الباحث التربوي موجه من طرف السوق، ولم ننتج بعد كتربويين مغاربة تصورا عن الإنسان المغربي الذي نريده، وعن استراتيجيات التعامل مع المستجدات العالمية في العلوم الإنسانية والتربوية بالخصوص، وعن الروض و المدرسة والجامعة المغربية. لا مناص إذا من التفكير بطريقة مختلفة ومغايرة عن المنهجية التي اتبعناها حتى اليوم. وما ذلك علينا بعزيز.

وقد يكون غياب الأبحاث التي تتناول البعد الإديولوجي في الكتب التعليمية راجع كذلك لغياب أداة منهجية لتحليل المضامين في بعدها الفكراني على رأي طه عبد الرحمان[2]. وسنقوم في هذه المحاولة بقراءة في أداة منهجية تم تطويرها في جامعة Bielefeld الالمانية من طرف الباحث Peter Weinbrenner بعنوان Entwicklung eines Instrumentariums fuer die Ideologiekritik wirtschafts_ und sozialkundlicher Lehr_ und Lernmittel.

تطوير أداة في التحليل الإديولوجي للكتب التعليمية والتعلمية الخاصة بالمواد الاقتصادية والاجتماعية.

وصدر هذا المؤلف في العدد45 من سلسلة:

Schriften zur Didaktik der Wirtschafts_ und Sozialwissenschaften

كتابات حول ديداكتيك العلوم الاقتصادية والاجتماعية

و سيرا على نهج مجموعة Weinbrenner نفتتح هذه المحاولة بتحديد معنى مصطلحي الإديولوجية، و النقد الاديولوجي ووظائفه، ثم ننتقل بعد ذلك إلى بسط مقولات الأداة المنهجية، وأخيرا التعليق عليها وبيان حدودها.

1. في معنى الاديولوجية

يمتنع مصطلح الإديولوجيا عن أي تحديد دقيق وعلمي بالمعنى الأساسي للكلمة. إلا أنه في معناه العام يشير إلى معنى الإخفاء والتستر أو التزييف للحقيقة المعرفية أو الحقيقة الواقعية[3]. و بالنظر إلى هذه المعاني التي يحيل عليها مصطلح الاديولوجية يمكن ان نورد ما يلي:

يرى Werner Hofmann في مؤلفه:

Grundelemente der Wirtschaftsgesellschaft

العنصر الأساسي لمجتمع الاقتصاد

في صفحته السابعة حسب Weinbrenner أن الاديولوجيات لها الخصائص التالية[4]:

- تنتمي بالأساس إلى المجتمعات ذات النظام السلطوي وتمثل مقولات الأفراد والجماعات التي تسعى إلى السلطة أو تمارسها أو تسعى إلى توسيعها

ـ أن الاديولوجيات تصدر دائما عن فهم معين للواقع يتماشى جزئيا مع هذا الواقع، و لذلك لا يمكن أن نصف الاديولوجيا بأنها على صواب أو على خطأ لأن لها ارتباطا بالواقع. إلا أن الخاصية الاساسية للمقولات الاديولوجية هي أنها مصدر الفهم الكائن أو الذي في مرحلة التكون. وعلى رأي Hofmann علامتها الاساسية هي النكوص والانحسار الفكري والتاريخي.

وبالرجوع إلى استعمالات المصطلح التي أوردها عبد الله العروي في كتابه مفهوم الاديولوجية يمكن الحديث عن خمس استعمالات وهي كالتالي[5]:

ـ استعمال القرن الثامن عشر وتعني الأفكار المسبقة الموروثة عن عصور الجهل والاستعباد والاستغفال

ـ استعمال الفلاسفة الألمان الذين يعتبرونها منظومة فكرية تعبر عن الروح التي تحفز حقبة تاريخية إلى هدف مرسوم في خط التاريخ العام وهي خطة واعية بذاتها.

ـ الاستعمال الماركسي ويعتبرها منظومة فكرية تعكس بنية النظام الاجتماعي العام.

ـ استعمال نيتشه ويقصد بها مجموع الأوهام والتعديلات والحيل التي يعاكس بها الإنسان الضحية قانون الحياة.

ـ استعمال فرويد ويعتبرها أفكارا ناتجة عن التعاقل الذي يبرز السلوك المعاكس لقانون اللذة والضروري لبناء الحضارة، وأظن أن فرويد يقصد هنا تلك المخارج التي يسعى الأنا لإيجادها قصد إحداث توازن بين متطلبات الهو(اللذة) والتزامات الأنا الأعلى وهي بالفعل عملية تعاقل بامتياز.

بالنظر إلى أوجه استعمال مصطلح الإديولوجية يمكن أن نجد هناك خيطا ناظما لهذه الاستعمالات، مفاده أن الإديولوجية لها علاقة وطيدة بالأفكار التي ينتجها الإنسان قصد تحقيق هدف معين، سواء كان تبريرا للواقع أو معاكسة له، كما أن لها بعدا ذاتيا وآخر جمعيا. ومجمل القول هو أن تعريف الفلاسفة الألمان يجمع هذه الأبعاد كلها، إذ أنه يعتبرها منظومة فكرية تعبر عن الروح الموجهة لعصر ما. وهو تعريف يحتوي الأبعاد الذاتية ويتجاوزها بأن يجعلها روحا محركة للمجتمع ككل، ومن ثم فهذا التعريف يلامس البعد التربوي ملامسة مباشرة بجمعه بين الذات والمجتمع والثقافة كذلك. والشبكة أدناه لا تلتزم بتعريف معين بل تستغل كل الاجتهادات في هذا المجال بغية ملامسة اغلب الجوانب التي قد يطالها النقد الاديولوجي. أما عن ماهية هذا الأخير فستكون محور النقطة الموالية.

2. في ماهية وأهداف النقد الإديولوجي التربوي

بالرجوع إلى الدراسات التي تناولت النقد الإديولوجي منهجيا ونظريا والتي تتوزع بين مدارس واتجاهات مختلفة، يمكن مقاربة هذا الإشكال بالاعتماد على الأهداف التي حددها Hans Albert للنقد الإديولوجي والتي يمكن إجمالها في ما يلي[6]:

ـ يتجاوز النقد الإديولوجي البعد اللغوي، أي عملية تتبع اللغة المستعملة والبحث في النصوص عن كلمات معينة والتي لها بعد قدحي أو ما إلى ذلك من الأحكام المعيارية أو القيمية.

ـ هدف النقد الإديولوجي هو توظيف مناهج و نتائج التفكير النقدي من أجل تكوين ودعم وتقوية الوعي الاجتماعي والرأي العام

ـ يسعى النقد الإديولوجي إلى الدفع باتجاه التربية على الفعل العقلي في حل الإشكالات المجتمعية

ـ النقد الإديولوجي في المجال التربوي يسعى إلى تعليم الأفراد منهجية التفكير النقدي والاستقلال الذاتي، ومساعدتهم على تطوير كفايات الممانعة لكل تفكير دغمائي، وكذلك القدرة على كشف كل غموض وإخفاء أو تستر، إنه يساعد المتعلم على إستدخال واستيعاب آليات تعرية و فضح الخفي والمتسترعنه

ـ النقد الإديولوجي التربوي يمكن الأفراد داخل المجتمع من تطوير مناعة ضد أشكال التبرير الغير معقولة، وتجعلهم مستعدين لقبول النقد والرأي المخالف.

ـ النقد الإديولوجي التربوي يمكن من تصحيح الأحكام القبلية الخاطئة خصوصا في بعدها الإجتماعي وكذا السياسي. ولا يخفى نوع العلاقة التلازمية بين المجتمع والسياسة والتربية.

ـ إنه يمكن من فضح التحيزات داخل المضامين

ـ ويساعد على الكشف عن النموذج الحضاري المرغوب فيه والمغضوب عليه

ـ ويمكن من الكشف عن أشكال الكذب والوهم المبثوثة في ثنايا النصوص

ـ ويدفع باتجاه تعرية أشكال التبرير والإقصاء والتبسيط

وبدون نقد إديولوجي للمضامين ومنهجيات عرضها في المؤلفات التعليمية، فإننا نحرم أنفسنا وأبناءنا ومستقبلنا ووطننا من نتائج قد تكون حاسمة في تطوره. النقد الاديولوجي لا يجعلنا نشارك في خدعة أن الأمور كلها بخير، وكل الكتب هي وفق توجيهات وزارة التربية الوطنية. وعلى رأي الكاتب الروماني بلوتارخ: عندما نطفئ الشموع فإن كل النساء جميلات. أي عندما تختفي آليات النقد فإن أغلب الكتب إن لم تكن كلها قابلة للتسويق.

أما في ما يخص المقولات التي من خلالها يمكن مقاربة هذا البعد في الوسائط التعليمية فيمكن التفصيل فيها في النقطة الموالية.

3 . المقولات التحليلية للنقد الإديولوجي

ذهبت الشبكة التي نحن بصدد بسط مقولاتها إلى تأصيل نظري حول النقد الإديولوجي لا ألتزم بعرضه والتطرق إليه نظرا لاتساعه، وكذا لكونه يحتاج إلى بحث خاص، لذلك فسأستعرض فقط أهم أفكاره، ثم أعرج على المقولات التي جاءت في الشبكة كما هي مع الإشارة إلى بعض الملاحظات الخاصة.

ينطلق الباحث من تأصيل نظري يعلل فيه المنطلقات الأساسية التي يعتمدها في بحثه. فيقسم العناصر التي لها علاقة بالنقد الاديولوجي إلى يلي[7]:

- منتج الاديولوجياIdeologieproduzent: أي الفاعل والداعي لها
- المستهدف بالاديولوجيا Ideologieadressat: أي المفعول به والمستهدف بها
- القول الاديولوجي Die ideologische Aussage: أي مضمونها أو المنتوج الإديولوجي

ونفصل القول في كل عنصر على حدى كالتالي:

- منتج الاديولوجياIdeologieproduzent :تطرح الشبكة إمكانية قراءة وضعية المنتج من زاويتين:

الأولى و تستهدف فهم وتحليل بنية سيروره التفكير عنده، بتعبير آخر الولوج إلى عالمه الفكري للنظر في كيفية انبناء منتوجه الاديولوجي. وهنا تطرح إشكالات منهجية كبرى تتجلى بالخصوص في كيفية الوصول إلى مثل هذا النوع من الولوج إلى العالم المعرفي للمنتج الاديولوجي. للخروج من هذا المأزق المنهجي يطرح Theodor Geiger طريقة تتبع أفكار المنتج الاديولوجي في سلسلة إبداعاته وبحوثه لكي نصل في الأخير إلى المصدر الذي ينهل منه، ويؤطر توجهه الاديولوجي. ذلك أن تتبع المنتج سيحيلنا لا محالة إلى موضع معين يفصح فيه بصراحة لا تحتاج إلى تأويل عن توجهه العام، بل قد نعثر في ثنايا كتاباته عن توجهات يعلن عداءه لها بوضوح. وفي هذا تصريح واضح عن توجهه بناءا على مفهوم المخالفة على رأي الأصوليين.

الزاوية الثانية و تروم اكتشاف السياق الاجتماعي الذي انبثق فيه ومنه المنتوج الاديولوجي. الغرض من هذه الخطوة هو أن لا يستند البحث فقط على ما هو نظري في حياة المنتج الاديولوجيي، ولكن كذلك ربطه بالأبعاد الاجتماعية المنتجة له، ذلك انه من الثابت أن المنتوج الاديولوجي له علاقة وطيدة بالحراك الاجتماعي والسياسي، ومتابعة هذه العلاقة تكشف بما لا يدع مجالا للشك عن الغاية من وراء المنتوج الاديولوجي والظروف التي أفرزته.

إضافة إلى تأصيل Geiger لجأت الشبكة الى الاستعانة بنظرية Werner Hofmann في هذا المجال. ومجمل ما يمكن أن نستخرجه كنتيجة للجولة التأصيلية مع هذا الأخير، هو كونه يؤكد على مركزية متابعة كل الاقوال، والتعبيرات، والنصوص، والصور، وغيرها والتي تستهدف بطريقة قصدية ومنظمة الإبقاء على وضعية اجتماعية غير عادية، وتصريفها في المؤلفات على أنها عادية، أو ترمي إلى المحافظة على الامتيازات المادية، والسياسية لفئة ما، وكذا المحافظة على مواقع السلطة لمجموعة معينة أو أشخاص بعينهم، أو تهدف إلى توسيع مكتسبات تحققت أو على الأقل المحافظة عليها، كل ذلك له دلالة إديولوجية لا تحتمل التجاوز، أو على الأقل يمكن اعتبارها من المتغيرات التي يجب الاعتماد عليها. بعد هذا ننطلق إلى المكون الثاني.

- المستهدف بالاديولوجيا Ideologieadressat :بالارتكاز على Hofmann تطرح الشبكة هذا البعد كالتالي:

هدف المنتج هو إقناع المستهدف (بفتح الدال) بادعائه وحمله على اعتقاد أن الصحة والصواب مع ما يعرضه من أفكار. ولبلوغ ذلك يلجأ المنتج إلى صياغة وتركيب أقواله بشكل لا يترك معه للذي يقع عليه الفعل الاديولوجي فرصة للاعتقاد في احتمال تلبس هذه الآراء بالخطأ أو الكذب. بل إنه من خلال تلك الصياغات

اللغوية يسد عليه الطريق للتفكير حتى في مضمون الأفكار نفسها فكيف بانتقادها أو الاعتراض عليها. هدف الفاعل الاديولوجي هو الاستحواذ على المستهدف كلية. بل إن الأمر يتجاوز حمله على الاعتقاد بصحة الفكرة والتسليم بها إلى دفعه إلى العمل بها ولها. وللمنتج الاديولوجي استراتجيات مختلفة معرفية وأخرى عاطفية وجدانية يوظفها. ويمكن سبك أهم مكوناتها كالتالي:

ـ Emotionalisierung durch Leerformeln : مخاطبة الوجدان عن طريق التراكيب العامة التي تقول كل شيء ول اتقول أي شيء. ويمكن أن نصوغ العنوان تأصيليا بشكل أفضل كالتالي: مخاطبة الوجدان باللجوء إلى التدليس اللغوي: ذلك أن مصطلح التدليس يتضمن بعد الكتمان، و الخداع، وكذا الظلم، والإخفاء، والظلام، وكلها أوصاف تصدق في حق فعل وفكر المنتج الاديولوجي. ولو وقفنا على هذا المعنى لوحده، وتوسعنا في شرح ارتباطه باستراتيجيات المنتج الاديولوجي لأغنينا بحثنا أي ما إغناء، ولكن ذلك سيخرجنا عن مقصودنا، فلنرجع إذا لشرح ماهية مخاطبة الوجدان باللجوء إلى التدليس اللغوي.

جاء في الشبكة أن المؤدلج (بكسر اللام) يلجأ إلى مخاطبة البعد العاطفي الوجداني عند المستهدف، ويستخدم في ذلك القوالب والتراكيب اللغوية الحمالة للتعدد في المعاني. فهي تعني كل شيء ولا تعني أي شيء. فعن طريقها يمكن أن نمرر كل قول أو فعل نريده، وأن نحمل من نستهدفه على الاعتقاد بالمعنى الذي نسعى للترويج له نظرا لحمولتها القيمية والمعيارية المتعددة والمتغيرة. فهب أن أحدا صاغ لك هدفه كالتالي:

هدفنا هو تربية المواطن الصالح

أو

نسعى إلى تطوير تربية نموذجية تحمل المغرب إلى مصاف الدول العظمى.

إنها أقوال وادعاءات لا يمكن أن يعترض عليها أحد، وعلى هذا الأساس يمكن للإديولوجي أن يمرر مع هذه القولة ما يشاء من أهداف أخرى تشكل بالأساس الأهداف المركزية لديه وإن جاءت من حيث الترتيب في مرتبة ثانوية.

هل هناك من سيعارض التربية على المواطنة الصالحة؟ أو يعترض على تربية تحمل المغرب إلى مصاف الدول العظمى؟ لا يعترض على هذه الأهداف إلا عدو للتقدم والعلم ولما لا، عدو للوطن. وهذا بالضبط هدف المنتج الاديولوجي : أي حمل المخالف له على التراجع مخافة الزج به في خانة أعداء الوطن والانسانية، فيدفعه إلى الانسحاب وترك المجال مفتوحا له لوحده. ولكن ما أن تسأله عن قصده بالمواطن الصالح، أو معنى التربية عن المواطنة، أو ماهية التربية ومضامينها والمعايير التي سيتبناها والتي توجه اختياراته، حتي تتكشف عورته، ويتجلى تدليسه في أبهى صوره. إذا فمنتج الاديولوجية يستغل القوالب اللغوية المدلسة على وجهيها: التجريبي و المعياري.

Mythologisierung durch Beschwoerungsformeln :الوثوقية الاسطورية عبر الأيمان المغلظة: للوصول إلى وثوقية تضاهي الأسطورة في التسليم بها، يلجأ المنتج الاديولوجي إلى التوظيف اللغوي في أبعاد أخرى

كأشكال التشبيه والاستعارة وغيرها مخاطبا البعد الوجداني، وناهجا في ذلك مسلك الترهيب والتخويف تارة، وعارجا على الترغيب تارة أخرى، ومقسما بالله وبكل ما يقسم به داخل المجتمع، وواعدا الناس بالجنة فوق الأرض، ومصورا لهم الواقع في أسوأ صوره بغية حملهم على الاعتقاد في صواب رأيه، و دفعهم الى التسليم بالتلازم المؤكد بين اختياراته و نجاتهم أو تحسين أوضاعهم. واستعمال الإيمان المغلظة وغيرها من الأدوات اللغوية الرامية إلى التغطية عن قصوره، وكذا توجيه اهتمام القارئ أو المستمع إلى عناصر بعينها وإخفاء أخرى.

إذا نظرت في خطابه فهو لا يحمل أي جديد، إلا أنه لغة ملغومة، وأهداف عامة، ووعود إديولوجية تبغي التأثير على المستمع أو القارئ، بل أكثر من ذلك تهدف أسره والاستحواذ عليه كلية.

● القول الاديولوجي Die ideologische Aussage : تعتبر عملية عزل واستخراج الأقوال الاديولوجية من بين مجمل الأقوال التي ينتجها شخص ما، من العمليات المعقدة والمحفوفة بالمخاطر والمزالق المنهجية، إذ تحتاج إلى ضبط كل ادعاء وتعليل كل فرز. فاللغة حمالة للأوجه، والنصوص على تنوعها قابلة للتأويل. إلا أن القول الاديولوجي رغم ذلك كله، يعبر عن نفسه بطرق، ويشتغل صاحبه بآليات تعتبر مدخلا أساسيا لكل عملية فرز في النقد الاديولوجي. ومن أهم خصائص القول الاديولوجي، العناصر التالية، و التي أوردتها الشبكة في إطار تأصيلها لاختياراتها النظرية:

يرتبط القول الاديولوجي حسب Geiger بكونه غالبا ما يحيل على منتجه أكثر من إحالته على الموضوع الذي يتناوله (البعد الذاتي). ويرى هذا الباحث أن مداخل الكشف عن هذا القول عليها أن تنظر إليه من زاوية مركزية سماها: بنية موضوع القول الاديولوجي. وهي زاوية لا يمكن فصلها عن ما سماه بموضوع القول الإديولوجي Aussagegegenstand وكذا السياق الاديولوجي Aussagezusammenhang.

للتوضيح يمكن أن نقول بأن بنية مضمون القول تحيل على البناء اللغوي للقول وقولبة المضمون لغويا بتقنيات متعددة بغية الاستحواذ على المستهدف إديولوجيا. إن البحث في المضمون يتم هنا كذلك بربطه بموضوع القول نفسه، ومدى صحة وتناغم القول مع حقيقة موضوع القول، زد على ذلك توظيف السياق العام المؤطر للقول نفسه. للتوضيح أكثر نقول: إن التعرف على المصادر التي ينهل منها المنتج الاديولوجي وتؤطر تفكيره، تحيلنا مباشرة على الأصل الاديولوجي المعتمد، وكذا مسلماته المركزية. فالمنتج لا محالة واقع في الإعلان عن توجهه بصراحة ووضوح في وضعيات وإنتاجات أخرى غير التي هي موضع النقد الاديولوجي. وهذا هو السياق المقصود: أي ذلك الإطار المعرفي والاجتماعي والسياسي الشامل الذي يتحرك فيه المنتج. إننا يمكن أن نوسع مفهوم السياق في النقد الاديولوجي ليشمل ماله علاقة بالقول الاديولوجي، وما له علاقة بالمنتج، والمستهدف، وكذا ظروف القول وملابساته المختلفة.

من معالم القول الاديولوجي أنه لا يصمد بل يعارض بطبيعته مبادئ المعرفة العلمية والمنطق. ورغم أنه حتى الآن، لم يتم تطوير أي تبلوجيات أي مصنفات خاصة بالأحكام المعيارية[8]، فإنه يمكن بالاستناد إلى الاطار النظري الذي تؤسس عليه هذه الشبكة، استخراج أسئلة موجهة للنقد الاديولوجي عموما، وهي وفقا Weinbrenner سبعة معالم أساسية[9]:

- كل قول إديولوجي يخلط بطبيعته بين الحقيقة الواقعية والأحكام القيمية بل بين الأحكام القيمية نفسها
- الانطلاق من مقدامات والوصول إلى نتائج غير صحيحة أو غير مكتملة، الشيء الذي يعني استباق المنتج الاديولوجي للنتائج
- ما يجب تعليله يتم السكوت عنه وتمريره على أنه مسلم به
- الفرضيات يتم تحويلها إلى يقينيات أو على الأقل اعتبارها ادعاءات ثابتة ويتم التأسيس عليها للوصول للنتائج المهيأة سلفا
- العلاقات السببية هي إما خاطئة أو أنها أحادية: فإذا كانت القضية ناتجة عن ثلاثة أسباب ردها إلى سبب واحد أو اثنين. وإذا كان السبب له نتيجتان أو أكثر اكتفى بواحدة أو أكثر لان الايديولوجي يركز فقط وبوعي أو كذا لا شعوريا على ما يهمه وكفى. أي أنه ينتقي من الأسباب والنتائج ما يخدم قصده الاديولوجي، ممارسا بذلك انتقاء وتضييقا يصيبان قوله بالهزال والاضطراب، وتلك خاصية القول المؤدلج الذي ينم عن التشهي في كل أبعاده.
- تعميم الاهتمامات الشخصية واعتبارها جماعية
- تعميم النتائج بمنطق فاسد وغير مقبول

ظاهر من هذا كله أن منهجية اكتشاف القول الاديولوجي وتعريته تنبني على ما هو منطقي ومضموني. وللاستزادة من ذلك نضيف ما أورده Hofmann في هذا الإطار إذ يعتبر أن مثل هذه المنهجية عليها أن تتبنى استرتيجية من مرحلتين اثنتين:

الاولى: سماها بالتحليل المعرفي المنطقي للقول الاديولوجي، وهنا وجب البحث عن حمولة الصدق في القول من حيث المضمون وكذا سلامة خطواته الاستدلالية.

أما الثانية: فسماها بالتحليل الاجتماعي للقول، ومدارها حول علاقة القول الاديولوجي بالموضوع الذي يتناوله، وكذا علاقته بمواضيع قريبة منه أو حتى مختلفة عنه والحاضرة في المجتمع. هذه العلاقات تكون متنوعة وعلى الأوجه التالية:

الوجه الاول: علاقة القول بوضعية منتجه، أي الوضع الاجتماعي،الاقتصادي، السياسي...إلخ أو علاقته بمنظمات، أو هيئات، أو أحزاب...إلخ

الوجه الثاني: علاقة الأقوال مع بعضها البعض. ذلك أن منتج القول الاديولوجي مسكون وموجه بالهدف الذي ينشده، ومن ثم فإن متن قوله قد يضم أقوالا يخالف بعضها البعض إن لم يكن عند التدقيق يناقض بعضها البعض الآخر.

الوجه الثالث: علاقة الأقوال بنتائجها المزعومة أو المحققة على أرض الواقع: ذلك أن الدعوة لقول إديولوجي معين مؤدية إلى نتائج معينة، قد نجد في الواقع المعاش أو التاريخ القريب ما يؤكد فشلها وعدم جدواها رغم إصرار صاحب القول على الترويج لها، فالتجربة الواقعية تفضح الاديولوجيا.

و إذا ما حاولنا الآن تلخيص هذا كله في إطار أسئلة توجيهية للنقد الإديولوجي فإننا سنحصل على ما يلي:

المقولة الأولى: هل تم تناول موضوع التكوين الاديولوجي في الكتاب المدرسي؟

هل تم توظيف مصطلح الإديولوجيا أو على الأقل هل ورد في مكان ما من الكتاب؟

هل تم تخصيص نصوص تتناول هذا الموضوع؟

المقولة الثانية: هل تم شرح مصطلح الاديولوجيا أو تعريفه؟

ما هي خصائص المصطلح المبثوثة في الكتاب؟

هل يتم التأصيل له؟ بمعنى على أية نظرية أو طرح يعتمد مؤلف الكتاب: الوضعية، الماركسية أو غيرها من النظريات؟

المقولة الثالثة: هل تم تطوير مقولات تحليلية في النقد الاديولوجي بالرجوع إلى:

المنتج الاديولوجي

المستهدف إديولوجيا

القول الاديولوجي؟

المقولة الرابعة: ماهي أنواع الأحكام الإديولوجية المبثوثة في الكتاب المدرسي؟

أحكام ذات مصادر قبلية أو وصفية؟

هل يحتوي الكتاب على استنتاجات خاطئة مبنية على مقدمات خاطئة؟

هل عملية الاستنتاج ممنهجة وسليمة؟

هل يتم تمرير الأفكار والأحكام بدون الاستدلال عليها؟

هل العلاقات السببية داخل النصوص المختارة سليمة أم خاطئة ام أنها أحادية التعليل؟

هل يتم تمرير الاهتمامات أو التوجهات الفردية على أنها توجهات عامة تشمل المجتمع ككل؟

كيف تتم عملية التعميم للحقائق والاستنتاجات المتوصل إليها؟

بقي أن أشير إلى لطيفة هامة أوردها[10] Josef Thonhauser مفادها:

أن ممارسة النقد الإديولوجي بأمانة وعلمية تستدعي من الناقد الإديولوجي أن يتعالى عن الاديولوجيا بمفهومها القدحي ويمارس قبل ذلك نقدا إديولوجيا ذاتيا.

وهنا أود الوقوف بعجالة على الفرق بين ممارسة النقد الاديولوجي من باب العلم، وممارسته من باب الاديولوجية الموغلة في الوهم والإخفاء والخداع.

إننا ننطلق من مسلمة مفادها أنه لا وجود لعلم مجرد من القيم، ونعتبر بأن هذا مطلب مستحيل في العلوم

الإنسانية بله في علوم التربية التي تبغي تنشئة الفرد على قيم وعادات ومعايير مجتمعه وفقا للفلسفة التي تحكمه. بل إننا نزعم أن مثل هذا المطلب غارق في الإديولوجيا في بعدها الاقصائي، ولا نريد الاستمرار في التوضيح مخافة الخروج عن المطلوب.

مسلم به بالنسبة إلينا أنه ليس هناك تفكير يتعالى عن الإديولوجيا إذا ما سلمنا بمفهوم الفلاسفة الألمان لها كما سبقت الإشارة لذلك، ومن يدعي تحرره الكامل من إديولوجية معينة فهو واقع من حيث نموه النقدي في مرحلة ماقبل الوعي الذاتي بالاديولوجية الذاتية.

إن النقد الاديولوجي ليس معناه أن هناك علوما تربوية بل وإنسانية محايدة في بعدها القيمي، وأهدافها الكبرى، بل إنه يسعى إلى اكتشاف الآفات التي تتسرب إلى الكتب والدروس المدرسية و التعليمية على العموم في بعدها المنهجي والمضموني، ويفي بالأغراض التالية:

- تربية النشء على التعليل وعدم قبول الرأي المتحكم هو تقوية للحس النقدي لدى المتعلم
- اكتشاف ما يخل بالتوجهات العامة للتربية والتكوين الوطنيين لان ذلك يحمي المكتسبات الوطنية التي أتت بالتوافق والتشارك من الانزلاق الحزبية والجمعوية التي تعمد إلى إقصاء المخالف، بل وتريد تجاوز الإجماع الوطني الذي يقوم على مبدأ الإقرار للغير بنفس الحقوق التي للذات ضمن المشروع المجتمعي.
- إن ممارسة النقد الاديولوجي في المجال التربوي ممانعة علمية ضد توظيف التربية في الصراعات السياسية الضيقة، وكذا فضح لكل تجاوز للمتفق عليه، خصوصا عندما يتولى وزراء حزبيون مهمة التعليم، فيأتي كل واحد منهم بإديولوجيته ويفتح لها المجال للانتشار من خلال الكتب المدرسية، والتوجيهات الوزارية، والحفلات المدرسية....الخ بل وبتعيين الحزبيين كنواب ومديري أكاديميات ورؤساء مصالح. إن التعليم والتربية يعلوان فوق أي توظيف إديولوجي، وعليهما أن يخدما المتفق عليه ضمن المشروع المجتمعي المغربي، لا أن يصبحا مجالا للمزايدات الضيقة، لان مثل هذا الفعل الاديولوجي يغلب مصلحة الاديولوجية الحزبية الضيقة على مصلحة الوطن.

فمن مميزات النقد الاديولوجي العلمي أنه ينطلق من قناعات ألزم بها الباحث العلمي نفسه، كاللجوء إلى الأدلة المنطقية والتجريبية للوصول الى الحقيقة، بعكس الإديولوجي الذي ينطلق هو الآخر من قناعة شخصية وواجب ألزم نفسه به، وهو مناصرة إديولوجيته موظفا في ذلك المنطق السليم والسقيم، والتجربة الصحيحة والكاذبة أو الخاطئة، وموهما مستهدفه بأن قوله الاديولوجي مصلحة عامة بالأساس، والحقيقة غير ذلك. كما ان العالِم (بكسر اللام) الاديولوجي لا يبغي توقيف العلم بتوصله الى حقيقة ما، بل قد يبدأ بالشك في هذه الحقيقة مرة أخرى نزولا عند القاعدة العلمية من أن الحقائق بالخصوص في العلوم الإنسانية نسبية، ومن تم ضرورة بقاءها منفتحة على التطور والتغير، وما يلازم ذلك من إعادة النظر في ماكان يعد مسلمة علمية في مرحلة من مراحل التراكم المعرفي، بعكس الاديولوجي الذي يدعي امتلاك الحقيقة الغير القابلة للنقاش ولا للتجاوز، ولا يهمه تقدم العلم أم تأخر، بل فقط التسليم له بانتهاء العلم عنده.

الممارسة النقدية مسلمة بانية للعلم، واقية له من الانحراف، مغذية للتراكم عند العالم، أما عند الاديولوجي فكل نقد يعد هدما، أو عداء تجب مقاومته، وقد لا يتورع الاديولوجي في تطوير أشكال لا أخلاقية للدفاع عن ما يعتقده. إن المؤدلج تنمو فيه مناعة قوية ضد الاختلاف والنقد، لأن الاعتقاد بامتلاك الحقيقة يوصله إلى مرحلة سيكولوجية ينغلق فيها عن ما سوى إديولوجيته لتسليمه بأن الحقيقة التي يبحث عنها الناس هي معه، أما الآخرون فقد عجزوا عن استيعابها، لذلك وجب هجرانهم، وهجران تعليمهم وأفكارهم، بل لا يتورع في اعتبارهم لم يصلوا بعد مرحلة من النضج تؤهلهم لبلوغ نبوءاته وفتوحاته الفكرية. إن صاحبنا الايديولوجي ينصب نفسه وصيا على الناس، وقد يصل به الأمر إلى تنصيب نفسه ربا للناس. فسبيله سبيل التقدم والرشاد وغيره واهم وضال.

إن العلم بطبيعته منفتح، أما الاديولوجية في شكلها ألإخفائي فهي إما منغلقة بالإطلاق، أو أنها تنفتح وتنغلق بناء على أهداف أصحابها.

تلكم كانت محاولة لقراءة شبكة النقد الاديولوجي ل Weinbrenner، وهي محاولة غرضها ملامسة موضوع غائب في البحث، حاضر في الممارسة. ولا تدعي الإمساك بكل خيوط منهجية النقد الإديولوجي، بل نرجو أن تكون بداية تدفع الباحثين لتعميقها وتعديلها والإضافة إليها ولما لا، تجاوزها.

المراجع

العروي، عبد الله: مفهوم الايديولوجيا. الدار البيضاء. 2003 الطبعة السابعة.

طه، عبد الرحمان: تجديد المنهج في تقويم التراث. الدار البيضاء 1994.

- Weinbrenner, Peter: Entwicklung eines Instrumentariums fuer die Ideologiekritik wirtschafts- und sozialkundlicher Lehr- und Lernmittel. Schriften zur Didaktik der Wirtschafts- und Sozialwissenschaften N 45.

- Thonhauser, Josef : Das Schulbuch im Spannungsfeld zwischen Wissenschaft und Ideologie. In: Olechowski, Richard (Hrsg).: Schulbuchforschung. Frankfurt am Main: 1995.

الهوامش

1 ـ كما هو الحال مع محاولة الباحث المقتدر أحمد أوزي في العدد 31 من مجلة علوم التربية وكذا محاولات أخرى لباحثين آخرين في العدد 5 من المجلة التربوية زد على ذلك موضوع ورد في العدد 15 من مجلة علوم التربية ومحاولة لعبد القادر المذنب و عبد الرحيم نمحري في جريدة الاتحاد الاشتراكي ليومه 4 مارس 1999.

2 ـ يستعمل هذا الباحث مصطلح الفكرانية عوض الاديولوجية وكذا الادلوجة الذي نحته عبد العروي، ويعتبر طه عبد الرحمان أن مصطلح عبد الله العروي قد يوحي فقط بالبعد السلبي للإديولوجية رغم أن اتجاهاتها ليست كلها سلبية. أنظر كتاب تجديد المنهج في تقويم التراث لطه عبد الرحمان. ص 25ـ24

3 ـ أشير هنا إلى أن كل التعاريف التي سترد في هذه المحاولة مقتبسة من المصدر الأساسي وهو المذكور أعلاه في متن الموضوع، أي النص المستهدف بالقراءة، وما يتم توظيفه من مراجع أخرى أو إضافته ستتم الإشارة إليه في حينه. لواقعية زللكلمة. ننتقل بعد ذلك

4- Weinbrenner, Peter: Entwicklung eines Instrumentariums
fuer die Ideologiekritik wirtschafts- und sozialkundlicher Lehr- und Lernmittel.
Schriften zur Didaktik der Wirtschafts- und Sozialwissenschaften N 45. S. 2.

5 ـ العروي، عبد الله: مفهوم الأيديولوجيا. الدار البيضاء. 2003 الطبعة السابعة.

6 انظر المرجع السابق ص 6.

المرجع السابق. ص. 7

8 ـ نميل إلى ترجمة مصطلح Typologie ب صنافة عوض تبولوجيا أو نمذجة. ذلك أن فعل صنف يعني جعل الشيء أصنافا وأنواعا، والتصنيف هو التمييز، فنقول صنف الشيء أي : ميز بعضه من بعض . كما يحيل هذا المصطلح على بعد الترتيب، فنقول صنف فلان الكتاب أي ألفه ورتبه. ومن تم فعوض استعمال مصطلح النمذجة نفضل مصطلح صنافة و إن كان هذا المصطلح يستعمله البعض كترجمة لمصطلح ـ Taxonomie ـ Taxinomie، إذ نعتقد بأن هذا الأخير يؤدي الغرض المطلوب بوضوح أفضل، وهذا هو قصدنا من البحث أصلا. فالتصنيف يشمل هذه المعاني ويحتويها.

9 ـ المرجع السابق ص 20.

10- Thonhauser, Josef : Das Schulbuch im Spannungsfeld zwischen Wissenschaft und Ideologie. In: Olechowski, Richard (Hrsg).: Schulbuchforschung. Frankfurt am Main: 1995. S. 193.

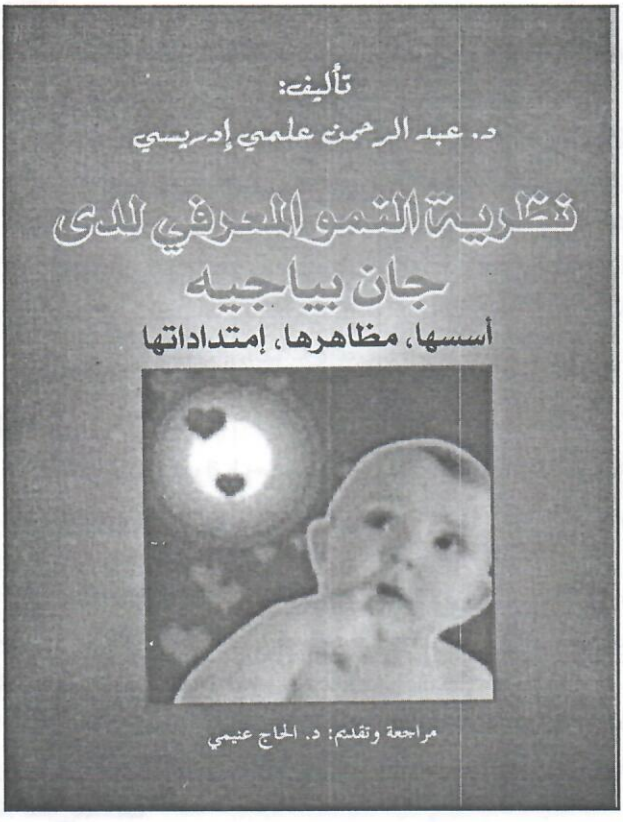

إصدار جديد